(٢٠)

التربية الدينية أولًا

العدد (٦٧) رجب (١٣٩٠هـ) سبتمبر (١٩٧٠م)

في صدر تاريخنا، وعلى امتداده مع الزمن، كان العالم الإسلامي يعرف بحبه للجهاد، وارتضائه لأشق التضحيات كي يحق الحق ويبطل الباطل.

كان هذا العالم الرحب عارم القوى الأدبية والمادية حتى يئس المعتدون من طول الاشتباك معه فقد كبح جماحهم، وقلم أظافرهم، ورد فلولهم مذعورة من حيث جاءت، أو ألحق بهم من المغارم والآلام ما يظل بينهم عبرة متوارثة وتأديبا مرهوبا.

ويرجع ذلك إلى أمور عدة، أولها أن الحقائق الدينية عندنا لا تنفك أبدا عن أسباب صيانتها ودواعي حمايتها، فهي مغلفة بغطاء صلب يكسر أنياب الوحوش إذا حاولت قضمها وذلك هو السر في بقاء عقائدنا سليمة برغم المحاولات المتكررة لاستباحتها، تلك المحاولات التي نجحت في اجتياح عقائد أخرى أو الانحراف بها عن أصلها.

ثم إن الإسلام جعل حراسة الحق أرفع العبادات أجرا، أجل فلولا يقظة أولئك الحراس وتفانيهم ما بقي للإيمان منار، ولا سرى له شعاع «قيل يا رسول الله: ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه! فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه! ثم قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»[1].

وإذا كان فقدان الحياة أمرا مقلقا لبعض الناس، فإن ترك الدنيا بالنسبة

---

(١) صحيح مسلم برقم ١٨٧٨.

إلى المجاهدين بداية تكريم إلهي مرموق الجلال شهي المنال، حتى إن النبي ﷺ حلف يرجو هذا المصير «والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»[1] فأي إغراء بالاستماتة في إعلاء كلمة الله ونصرة الدين أعظم من هذا الإغراء؟

لقد كانت صيحة الجهاد المقدس قديما تجتذب الشباب والشيب، وتستهوي الجماهير من كل لون، فإذا سيل لا آخر له من أولي الفداء والنجدة يصب في الميدان المشتعل، فما تضع الحرب أوزارها إلا بعد أن تكوي أعداء الله، وتلقنهم درسا لا ينسى.

هل أصبحت هذه الخصائص الإسلامية ذكريات مضت، أم أنها محفورة في عقلنا الباطن تحتاج إلى من يزيل عنها الغبار وحسب؟

إن الاستعمار الذي زحف على العالم الإسلامي خلال كبوته الأخيرة بذل جهودا هائلة لشغل المسلمين عن هذه المعاني، أو لقتل هذه الخصائص النفسية في حياتهم العامة، وذلك ليضمن فرض ظلماته ومظالمه دون أية مقاومة!

وقد توسل إلى ذلك بتكثير الشهوات أمام العيون الجائعة، وتوهين العقائد والفضائل التي تعصم عن الدنايا، وإبعاد الإسلام شكلا وموضوعا عن كل مجال جاد، وتضخيم كل نزعة محلية أو شخصية تمزق الأخوة الجامعة، وتوهي الرباط العام بين أشتات المسلمين.. وقد أصاب خلال القرن الأخير نجاحا ملحوظا في سبيل غايته تلك.

ومن ثم لم تنجح محاولات تجميع المسلمين لصد العدو الذي جثم على أرضهم، واستباح مقدساتهم. وما قيمة هذا التجميع إذا كان الذين ندعوهم قد تحللوا من الإيمان وفرائضه، والقرآن وأحكامه؟ إن تجميع الأصفار لا

---

(١) الحديث من رواية البخاري.

ينتج عددا له قيمة! وإن الجهد الأول المعقول يكمن في رد المسلمين إلى دينهم، وتصحيح معالمه ومطالبه في شؤونهم، ما ظهر منها وما بطن.

عندئذ يدعون فيستجيبون، ويكافحون فينتصرون، ويحتشدون في معارك الشرف، فيبتسم لهم النصر القريب، وتتفتح لهم جنات الرضوان.

إن الرجل ذا العقيدة عندما يقاتل لا يقف دونه شيء، أعجبتني هذه القصة الرمزية الوجيزة، أسوقها هنا لما تنضح به من دلالة رائعة.

حكوا أنه فيما مضى كانوا يعبدون شجرة من دون الله، فخرج رجل مؤمن من صومعته وأخذ معه فأسا ليقطع بها تلك الشجرة، غيرة لله وحمية لدينه! فتمثل له إبليس في صورة رجل وقال له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: أقطع تلك الشجرة التي تعبد من دون الله، فقال له: اتركها وأنا أعطيك درهمين كل يوم، تجدهما تحت وسادتك إذا استيقظت كل صباح!

فطمع الرجل في المال، وانثنى عن غرضه، فلما أصبح لم يجد تحت وسادته شيئا، وظل كذلك ثلاثة أيام، فخرج مغضبا ومعه الفأس ليقطع الشجرة.. فاستقبله إبليس قائلا: إلى أين أنت ذاهب؟ قال أقطع الشجرة! قال: ارجع فلو دنوت منها قطعت عنقك.

لقد خرجت في المرة الأولى غاضبا لله فما كان أحد يقدر على منعك!

أما هذه المرة فقد أتيت غاضبا للدنيا التي فاتتك، فما لك مهابة، ولا تستطيع بلوغ إربك فارجع عاجزا مخذولا.

إن الغزو الثقافي للعالم الإسلامي استمات في محو الإيمان الخالص وبواعثه المجردة، استمات في تعليق الأجيال الجديدة بعرض الدنيا ولذة الحياة، استمات في إرخاص المثل الرفيعة وترجيح المنافع العاجلة.

ويوم تكثر النماذج المعلولة من عبيد الحياة ومدمني الشهوات فإن العدوان يشق طريقه كالسكين في الزبد، لا يلقى عائقا ولا عنتا.

وهذا هو السبب في جؤارنا الدائم بضرورة بناء المجتمع على الدين وفضائله، فإن ذلك ليس استجابة للحق فقط، بل هو السياج الذي يحمينا في الدنيا كما ينقذنا في الآخرة.

إن ترك صلاة ما قد يكون إضاعة فريضة مهمة، وإشباع نزوة خاصة قد يكون ارتكاب جريمة مخلة، لكن هذا وذاك يمثلان في الأمة المنحرفة انهيار المقاومة المؤمنة والتمهيد لمرور العدوان الباغي دون رغبة في جهاد أو أمل في استشهاد، ولعل ذلك سر قوله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ (**مريم: ٥٩**).

إن كلمة الجهاد المقدس إذا قيلت- قديما- كان لها صدى نفسي واجتماعي بعيد المدى، لأن التربية الدينية السائدة رفضت التثاقل إلى الأرض والتخاذل عن الواجب، وعدت ذلك طريق العار والنار وخزي الدنيا والآخرة.

وهذه التربية المغالية بدين الله، المؤثرة لرضاه أبدا هي التي تفتقر إليها أمتنا الإسلامية الكبرى في شرق العالم وغربه.

وكل مؤتمر إسلامي لا يسبقه هذا التمهيد الحتم فلن يكون إلا طبلا أجوف!

والتربية الدينية التي ننشدها ليست ازورارا عن مباهج الحياة التي تهفو إليها نفوس البشر، ولكنها تربية تستهدف إدارة الحياة على محور من الشرف والاستقامة، وجعل الإنسان مستعدا في كل وقت لتطليق متعه إذا اعترضت طريق الواجب.

كنت أقرأ مقالا مترجما في أدب النفس فاستغربت للتلاقي الجميل بين معانيه وبين مواريثنا الإسلامية المعروفة التي يجهلها، للأسف، كثير من الناس.

تأمل معي هذه العبارة، يقول جوته الشاعر الألماني: من كان غنيا في دخيلة نفسه فقلما يفتقر إلى شيء من خارجها!

أليس ذلك ترجمة أمينة لقول رسول الله ﷺ:

«ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»!

عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت نعم يا رسول الله! قال: فترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: "إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب"[1].

واسمع هذه العبارة من المقال المذكور: النفس هي موطن العلل المضنية، وهي الجديرة بالعناية والتعهد، فإذا طلبت منها أن تسوس بدنك سياسة صالحة فاحرص على أن تعطيها من القوت ما تقوى به وتصح، هذا القوت شيء آخر غير الأخبار المثيرة والملاهي المغرية والأحاديث التافهة والملذات البراقة الفارغة، ثم انظر إليها كيف تقوى بعد وتشتد، إن التافه الخسيس مفسدة للنفس! واعلم أن كل فكرة تفسح لها مكانا في عقلك، وكل عاطفة تتسلل إلى فؤادك، تترك فيك أثرها، وتسلك بك أحد طريقين إما أن تعجزك عن مزاولة الحياة وإما أن تزيدك اقتدارا وأملا.. أليس هذا الكلام المترجم شرحا دقيقا لقول البوصيري.

وإذا حلت الهداية نفسا نشطت للعبادة الأعضاء!

وتمهيدا حسنا لقول ابن الرومي:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى.. مستقيم وأعوج

واقرأ هذه الكلمة أيضا من المقال المترجم١[2]: رب رجل وقع من الحياة

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم (٧٩٢٩) وصححه.

(٢) مختصرة عن مجلة «ذي فورم».

في مثل الأرض الموحلة فكادت تبتلعه، ولكنه ظل يجاهد للنجاة مستيئسا، وبينما هو كذلك انهارت قواه، وشق عليه الجهاد، وأسرعوا به إلى الطبيب.. إن الطبيب لم يجد بجسده علة ظاهرة، كل ما يحتاج إليه الرجل من أول أمره، ناصح يعلمه كيف ينازل الحياة وجها لوجه لا تثنيه عقبة ولا رهبة!

إن هذا الكلام ذكرني بما روي عن جعفر الصادق: من طلب ما لم يخلق تعب ولم يرزق! قيل وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا.

وأنشدوا:

يطلب الراحة في دار الفنا خاب من يطلب شيئا لا يكون!

إن التربية التي ننشدها نحن المسلمين ليست بدعا من التفكير الإنساني الراشد، إنها صياغة الأجيال في قوالب تجعلها صالحة لخدمة الحق، وأداء ضرائبه، واحتقار الدنيا يوم يكون الاستمساك بها مضيعة للإيمان، ومغاضبة للرحمن.

والاستعمار يوم وضع يده على العالم الإسلامي من مائة سنة صب الأجيال الناشئة في قوالب أخرى، نمت بعدها وهي تبحث عن الشهوات، وتخلد إلى الأرض، فلما ختلها عن دينها بهذه التربية الدنيئة استمكن من دنياها، فأمست جسدا ونفسا لا تملك أمرها، ولا تحكم يومها ولا غدها.

بل إنها في تقليدها للعالم الأقوى تقع في تفاوت مثير عندما تنقل المباذل، ومظاهر التفسخ في الحضارة الأوروبية.. تنقلها بسرعة الصوت، أما عندما تنقل علما نافعا، وخيرا يسيرا، فإن ذلك يتم بسرعة السلحفاة، وكثير من الشعوب الإسلامية تبيع ثرواتها المعدنية والزراعية بأكوام من المواد المستهلكة، وأدوات الزينة والترف مع فقرها المدقع إلى ما يدفع عنها جشع العدو ونياته السود في اغتيالها وإبادتها!

وظاهر أن هذا السلوك استجابة طبيعية لأسلوب التربية الذي أخذت به

من الصفر، وأثر محتوم لاتخاذ القرآن مهجورا، ونبذ تعاليمه وقيمه، وهل ينتج ذلك إلا طفولة تفرح باللعب المصنوعة، والطرف الجديدة، والملابس المزركشة، والمظاهر الفارغة؟ ولا بأس بعد توفير هذا كله من استصحاب بعض الآثار الدينية السهلة! ولتكن هذه الآثار الاحتفال بذكرى قديمة أو زيارة قبر شهير!

ثم يسمى هذا السلوك التافه تدينا!

لقد جرب المسلمون الانسلاخ عن دينهم، واطراح آدابه، وترك جهاده فماذا جر عليهم ذلك؟ حصد خضراءهم في الأندلس، فصفرت منهم بلاد طالما ازدانت بهم وعنت لهم، وما زال يرن في أذني قول الشاعر:

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا؟

فأجابت هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أينا!

أسمعت هذا النغم الحزين يروي في اقتضاب عقبي اللهو واللعب، عقبى إضاعة الصلاة واتباع الشهوات؟ إن عرب الأندلس لم يتحولوا عن دارهم طائعين، ولكنهم أخرجوا مطرودين، أفلا يرعوي الأحفاد مما أصاب الأجداد؟

لقد قرأت أنباء مؤتمرات عربية وإسلامية كثيرة اجتمعت لعلاج فلسطين فكنت أترك الصحف جانبا ثم أهمس إلى نفسي: هناك خطوة تسبق هذا كله، خطوة لا غنى عنها أبدا:

هي أن يدخل المسلمون في الإسلام.

إنني ألمح في كل ناحية استهانة بالفرائض، وتطلعا إلى الشهوات، وزهادة في المخاطرة والتعب، وإيثارا للسطوح عن الأعماق، والأشكال عن الحقائق، وهذه الخلال تهدم البناء القائم، فكيف تعيد مجدا تهدم، أو ترد عدوا توغل؟

ما أحرانا أن نعقل التحذير النبوي الكريم: «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»[١].

فإذا أصغينا إلى هذا النذير ابتعدنا عن منحدر ليست وراءه إلا هاوية لا قرار لها، ثوى فيها - من قبلنا- المفرطون والجاحدون.

(١) رواه أحمد برقم (١٩٧٧٢).